جاد الحاج في روايته الاولى :
لا تهربوا .. فالساحة هنا ..

"قطار الصدفة":

ساحة عراك على مستوى العالم

◆ الرواية الاولى لشاب مارس الصحافة ونظم الشعر، رواية من نوع خاص صادرة عن « دار الكاتب العربي » ، « قطار الصدفة » .

انها القصة الاولى التي كتبها الزميل جاد الحاج . طريفة في غرابتها ، صادقة في عمقها ، لكنها فريدة .

الحدث ليس مقصودا بذاته ، والسرد ليس بالتعبير الوحيد . فجاد الحاج يعد نفسه روائيا انطباعيا لا يرمي الى حبك قصة بقدر ما يرمي الى الاثر الذي تحققه أحداث هذه القصة .

شاب اسمه سمعان الدوار ، صورة نموذجية للشباب في هذه الايام ، يدفعه الضياع الى الرحيل سعيا وراء الخلاص خارج حدود الوطن . سمعان يهجر بيته ويرحل بعد ان تطرده الجامعة لاسباب سياسية ونشاطات اعتبرت فوضوية . وبالاوتوستوب يصل الى أوروبا ومن سيارة خاصة الى قطار مسير ، ينتهي به السفر الى أسوج حيث يجد نفسه وحيدا بلا مأوى ولا رفيق . يلقى عليه القبض بتهمة التشرد على رصيف الميناء ، وفي السجن ينشب صراع بين سمعان وأحد المدمنين على تناول الانفيتامين .

وبعد معركة قاسية يموت السجين المخدر بغير قصد من قاتله سمعان . لكن العدالة الانسانية تسوق الشاب الى السجن المؤبد .

أحداث القصة تسعى اذن الى القول ان ساحة العراك باقية في جميع انحاء العالم ما بقي الشر في الانسان وما بقيت الصدفة المحرك الحاضر الشرير لتوليد لحظة الاصطدام . وتفضل القصة باجوائها ان تظل ساحة العراك هنا ، لانها بذلك تكون أجدى وأهم .

أما الهروب ،فهو من سجن الى سجن، ومن معركة الى معركة ، والمسألة مسألة اختيار بين معركتين ، لا ركون الى نقيض المعركة .

ولا يتردد جاد في اضفاء اجواء شعرية على أحداث قصته، بحيث تسهم هذه الاجواء في تحقيق الاثر المطلوب من الحدث :

جمدت العقارب في ساعات الابراج
ركضت ...
طاردني صدى خطواتي
مشيت ...

يوسف الخال

« قطار الصدفة » لجاد الحاج يذكرني بقطار ركبته يوما الى دمشق ، حتى اذا ما وصل بنا الى بحمدون زحف الجراد على السكة واوقف العجلات .

كان مشهدا عجيبا لا ينسى .

وترك الجراد بعد ان اكل الاخضر واليابس ، فواصل القطار طريقه الى دمشق .

لا اعرف لماذا تذكرت ذلك القطار، وانا اقرأ «قطار الصدفة»، كما اني لا ادرك وجه الشبه .

لكني اعرف وادرك ان « قطار الصدفة » اخذني في رحلة ، اين من عجبي وسروري بها رحلتي تلك الى دمشق .

كتاب جاد الحاج

الشعر معيوش لحظات، لحظات

كل منظمة « لا » ، كل اللاانتماء الحاصل أو المطموح اليه ، كل محاولة للهرب جغرافيا وفكريا ، ماديا ونفسيا ، بقصد او بلا قصد ، تنتهي عند جاد الحاج كتابا موضبا يحمل توقيعه ، عنوانه « قطار الصدفة » .

البعض الذي صدق جاد الحاج ولو قليلا سيصدم . أهي الرغبة في الفضيحة فقط ؟ أتكون هذه الرغبة انتقاما من عبثية الحياة ، أم انسجاما مع لعبتها ؟ ماذا يريد اذن جاد من وراء بحثه عن المستحيل ثم تبليغنا ذلك ؟

أهي دعوة الى دخول التجربة ؟ وكيف يدعونا اليها وهو خرج منها ؟ كيف يدعونا الى ركوب القطار الذي هجره ؟ وهل توضيب كتاب سوى التاكيد على هذا الخروج وهذا الهجر ؟

أهي محطة لمتابعة اللعبة ؟ واذا كانت لعبة فلماذا ذلك الصراخ الطالع احيانا من اعماق القلب ؟ واذا لم تكن فلماذا الدعوة ، عبر هذا التحديد ، الى المشاركة في السفر ، في سفر خاص ، سواء الى الخارج والى الداخل ، مع حبة ل. س. د. أو لا حبة ، مع حبيبة أو لا حبيبة ؟

أهي لعبة الطموح الشاطر للوصول الى قلب العالم حيث الشعور بالاستقرار أعمق ، حيث وهم الشعور بالاستقرار أعمق ؟ وايهم اكثر شعورا بالاستقرار أولئك الذين في الوسط ، في قلب العالم ، ما يسمونه العالم ، أم اولئك الذين يعيشون على حواشيه . أو ما يظنون أنه الحواشي ؟

اتكون كل اخبار هذا الكتاب ، كل قصصه ، كل صوره المشحونة باحساس شعري هي للتحسر على عدم الوصول الى قلب العالم ، التحسر على هذا الرفض المتبادل والتوضيح لآخرين طول هذه المسافة التي يجب قطعها للوصول ؟ أليس توضيب الكتاب خطوة في هذه الطريق ؟

ايظل جاد الحاج كالزانية التي تركت بيتها فاذا بيتها لا يعود اليها ، ولا بيوت الطريق ؟ أم انه وجد البيت ، أو غرفة في بيت ، أو حتى عتبة ؟

ذلك ان الذين يسلكون هذه الطريق الرافضة اما انهم يبدأون بالتشرد وأما ينتهون اليه . والاشد اخلاصا هم أولئك الذين ينتهون .

هل أقول انني اعرفه جيدا هذا المتشرد الجميل ؟ هل أقول انني كنت اعرفه ، أو انني اعرفه اليوم فقط ، اذ هدأت فورة الصورة الاولى في رأسي لهذا الكائن الزئبقي الذي كان يترجرج في كل الطرقات وعلى كل المسافات ، وأمام كل الاعين المبصرة ، وغير المبصرة ، ليترك عن وعي أو غير وعي بصماته الخفيفة الكثيرة المتكاثرة في كل مكان ، تعويضا للشعور الرهيب بالوحدة حيال كثافة العالم وقساوته ؟

قد تكون مأساة جاد الحاج انه لم يستطع ان يكتب شعرا في حجم احساسه . ولكن اذا لم تكن هذه اللحظات المصورة كلها بصدق مقصود ، شعرا أو لحظات شعرية كلها ، فعلى التاكيد هي اشارات واضحة الى لحظات شعر معيوشة .

هل تنتهي اللعبة باكرا هكذا ؟ متى يقلع القطار ثانية ؟ أين تكون المحطة التالية

عصام محفوظ